الغنوشي وعبقرية الفشل

علي الصراف
كاتب عراقي

كيف يمكن للمرء أن يكون من صنع الإعلام، ويعجز الإعلام في النهاية عن أن يُنقذه؟

السؤال الأصعب هو، ما حجم الفشل الذي يجعل ماكينة إعلامية بحجم قناة "الجزيرة" لا تكفي لإنقاذ راشد الغنوشي من ورطته مع نفسه؟ هل نطلب النجدة من "سي.أن.أن"؟ أم هل تنفع "رويترز" التي تتبرع بتقديم قراءة للإجراءات التي اتخذها الرئيس قيس سعيد تمالئ التصور الذي يتصوره الغنوشي عن صلاحياته الدستورية؟

مثل الكثير ممن يحاولون اللعب على كل الحبال، فإنهم يتعثرون بحبالهم في النهاية.

مشروع أصولي، ظل لا يؤمن بالديمقراطية في مرجعياته الرسمية، صار رأسا للبرلمان. يبدو الأمر وكأنه نكتة. ولكنها لم تعد كذلك عندما نهض واحد من أنصار تلك المرجعية، بكل هدوء، ليمشي بضع خطوات تبدو طبيعية، لكي يوجه لكمات إلى وجه زعيمة كتلة برلمانية، ويحوّل جلسة البرلمان من تحت أنف رئيسه إلى حلبة ملاكمة.

تأمل، من جديد، في "فيديو" تلك "العملية" التي أسقطت الديمقراطية في الوحل.

والواقع هو أن حلبة الملاكمة هي الشيء الطبيعي في الثقافة المرجعية الغنوشية، وليس تقاليد العمل البرلماني.

هذا الفشل لم يكن إلا الوجه الفضائحي للكثير من أعمال الملاكمة التي خضع لها الشعب التونسي، تحت إدارة الغنوشي. وهي ذاتها الأعمال التي دفعت الرئيس سعيد إلى أن يتولى رئاسة النيابة العامة لكي يفتح ملفات الفساد والجرائم الأمنية التي تم دفنها في أضابير النيابة العامة وأضابير البرلمان.

هذا هو المنصب الذي يُخيف أهل المرجعيات المراوغة. ذلك أنهم راوغوا كثيرا في محاولات "التمكين" من أجل الاستيلاء على الدولة التونسية، وتنصيب إدارات تكفل لهم استدامة الفشل.

والفشل هو المستنقع الطبيعي لثقافة القضاء والقدر الغنوشية. من ناحية، هي تدفع إلى إفقار الناس، ومن ناحية أخرى تقدم لهم تفسيرا آخر، يقول إن ذلك من مشيئة السماء السابعة وليس من فعل الذين يرتعون في العالم السفلي تحت أرض البرلمان والحكومة.

الفشل لا يحمل إلا وصفا واحدا، إنه فشل وهو أكبر من قدرة «الجزيرة» على أن تجعله نجاحا باهرا لرجل «عبقري» مثل الغنوشي، شيء كهذا كثير حتى على إعلام تركيا العُصملّية

تونس ليست بلدا فقيرا. صحيح أنها من دون موارد طبيعية كبيرة، إلا أنها ليست من دون موارد. الثروة البشرية هي أحد أهم مواردها. السبّاح أحمد الحفناوي حامل ذهبية أولمبياد طوكيو، ومحمد خليل الجندوبي حامل فضية التكواندو في طوكيو أيضا، وأنس جابر بطلة التنس، أمثلة تغري بالإشارة إليها، ولكنّ أبطال تونس التاريخيين هم أنفسهم فلاحوها الذين يوفرون 12 في المئة من الناتج الإجمالي (أو أكثر من 5 مليارات دولار سنويا)، وعمّالها بين الصناعتين الاستخراجية والتحويلية الذين يوفرون 33 في المئة من الناتج الإجمالي (أو أكثر من 15 مليار دولار سنويا)، ومديرو شؤون السياحة التي توفر 2 مليار دولار سنويا (5 مليارات في الظروف العادية). هؤلاء هم الثروة التي أضاعها حزب راشد الغنوشي وجعلها ترزح تحت نير الفقر.

الطبول التي تُطبّل للغنوشي كثيرة دائما، ليس أقلها تركيا العثمانية نفسها. بمعنى أنه بالإضافة إلى السمعة التي توفرها له "الجزيرة"، ما كان يجب لسمعته أن تنحدر إلى سمعة رديئة إلى الحد الذي يدفع الملايين من التونسيين إلى الشعور بتأنيب الضمير عندما أوكلوا السلطة والنفوذ إلى حزب عصبوي يصنع الفشل حتى في بلد مثل تونس.

وهل تحتاج آلة إنتاج كانت تعمل مثل الساعة السويسرية إلى أن تصبح ساعة رملية لكي تقلب الأوضاع في البلاد إلى الحد الذي يجعل أكثر من 40 في المئة من السكان يعيشون تحت خط الفقر؟ أو لا يجد نحو 35 في المئة من شبابه عملا؟

لم يكن كل شيء قويما في تونس قبل التغيير، والساعة لم تكن سويسرية تماما. إلا أنها كانت تتدبر شؤونها على الأقل. بينما أمضى الغنوشي ثلاثة أرباع سلطته وهو يحاول أن يتدبر شؤون أنقرة والدوحة في بلاده.

ويشار بالبنان إلى بيئة الفساد التي كانت تعمّ مصادر صنع الثراء في تونس (من اقتصاد الاستثمارات الخارجية غالبا)، في ظل العهد السابق. ولكن الفساد تحت سلطة الفشل أصبح بنيويا لنهب الدولة من داخلها، بينما ضاعت الاستثمارات الخارجية.

بعض النجاح يحتاج إلى عبقرية. وكذلك الحال مع الفشل. ولا بد من الاعتراف بأن قيادة الغنوشي، المباشرة، أو من خلف الستار، كانت عبقرية تماما في صنع ما انتهت إليه أحوال البلاد.

إذ مَنْ يمكنه أن يدفع بلدا بموقع تونس وشعبها وعلاقاتها الدولية إلى حافة الإفلاس، ما لم يكن عبقريا؟

مفهوم تماما حقيقة أن الغنوشي لا علاقة له بشؤون إدارة الدولة. وثقافته أضيق من أن تمنحه القدرة على قيادة أربع غنمات، ولكن الدولة في تونس تدير نفسها إلى حد بعيد، ولا تحتاج إلى راع عبقري إلى ذلك الحد.

فوضى الصراعات السياسية، والأحابيل والمؤامرات امتدت إلى حزبه نفسه، ولكنها طغت على الأجواء العامة، إلى درجة أن البرلمان كان مجرد آلة لصنع الضجيج. وكان ذلك يُدعى "ديمقراطية"، حيث يمشي "النائب" بهدوء مشيته الطبيعية، قبل أن تبدأ الملاكمة.

هذا النمط من المسالك، كان هو الذي سمح باغتيال النائبين محمد البراهمي وشكري بلعيد، ومحاولة اغتيال غيرهما. المسألة كانت في الأصل مسألة ثقافة حملها الإسلام السياسي إلى تونس. وهي ثقافة لو كانت مقبولة في عهد الدكتاتورية لما بقي الغنوشي حيا. خطيئة ذلك العهد هي أنه استخف بثقافة الغنوشي، معتقدا أنها بعيدة كليا عن فلك المعنى الذي تدور فيه تونس. وخطيئة التونسيين التي يدركونها الآن، هي أنهم استخفوا بذلك الفلك، فالتبس عليهم المعنى.

وليس الرئيس قيس سعيد هو الذي ضاق ذرعا. التونسيون سبقوه إلى الشكوى والتذمر ومشاعر الإحباط.

جانب من استسلامهم لأقدار كورونا، جاء من ذلك الإحباط نفسه. الحياة لم يعد لها معنى. ولئن ظلت الحريات العامة عزيزة على الجميع، فلقد عز عليهم حال البؤس الذي باتوا يعيشون فيه، حيث تتنازع الأحزاب فيما بينها، وتتنازع الحكومة مع الرئيس، ويتآمر هذا على ذاك، وتدور شؤون البلاد في الدوائر المظلمة لتحالفات تسودها الشبهات والأضاليل.

النظر إلى إجراءات الرئيس سعيد على أنها "انقلاب"، أو على أنها "ثورة"، لا يعني شيئا. لأن المشكلة ليست مشكلة سجال حول وصف شيئين مختلفين. الفشل لا سجال فيه. وهو لا يحمل إلا وصفا واحدا. إنه فشل. وهو أكبر من قدرة "الجزيرة" على أن تجعله نجاحا باهرا لرجل "عبقري" مثل الغنوشي. شيء كهذا كثير حتى على إعلام تركيا العُصملّية.

ما يقوله الحوثي وما يفعله!

صالح البيضاني
صحافي يمني

يبدو للوهلة الأولى لمن لا يعرف تفاصيل الحرب التي تشهدها اليمن وخلفياتها منذ سبع سنوات تقريبا، أن هذه البلاد التي أنهكتها الصراعات باتت في آخر فصول معاناتها، مع لمعان البريق الكاذب الذي يبرز من تصريحات كثير من المسؤولين الدوليين والأمميين الذين لم ينفكوا يتحدثون عن ضرورة إحلال السلام وإنهاء الحرب.

ومع كل حديث أو حراك دولي لحلحلة الأزمة اليمنية وإخراجها من دائرة العتمة، يزداد الملف اليمني تعقيدا، وتتعاظم لاءات الحوثي الرافضة للسلام واللاهثة نحو فرض سياسة أمر واقع على اليمنيين وعلى الإقليم والمجتمع الدولي.

وخلال الأيام القليلة الماضية تجدد المشهد مرة أخرى، مع بدء نائب وزير الخارجية الأميركي ومبعوث واشنطن الخاص إلى اليمن جولة جديدة لحلحلة الملفات العالقة ودفع عجلة المبادرتين الأممية والسعودية العالقتين في وحل التصلب الحوثي الذي تزامن مع تصعيد جديد للميليشيات المدعومة من إيران التي وقّتت هجماتها كما هو الحال في مرات سابقة على وقع التحركات الدولية.

كثف الحوثيون هجماتهم على الأراضي السعودية باستخدام الطائرات المسيرة والصواريخ الباليستية في حركة استعراضية للقوة لا تحقق في الغالب أيّ نتائج عسكرية، حيث يتم اعتراضها وإسقاطها وإدانتها دوليا، لكن الجديد هذه المرة تمثل في نوعية التصعيد الحوثي الداخلي الذي استهدف مناطق جنوبية بينها مناطق تم طرد الحوثيين منها قبل أعوام مثل منطقة "بيحان" في محافظة شبوة التي يتهيأ الحوثي لمهاجمتها مجددا، إلى جانب مناطق أخرى تمثل عمقا تاريخيا واستراتيجيا للجنوب مثل مناطق "يافع" في محافظة لحج التي توصف بأنها أحد المخازن البشرية الهائلة التي شاركت في إحباط المخططات الحوثية لغزو الجنوب في العام 2015.

وعلى الرغم من أن الأهداف الاستراتيجية الحوثية التي تقف خلف فتح جبهات جديدة باتجاه جنوب اليمن لم تتضح بعد، إلا أنه من المؤكد ومن واقع قراءة متأنية للسلوك العسكري الحوثي، يبدأ الأمر مسيطرة على شمال اليمن، مع الإيحاء بأنه مستعد في مقابل ذلك لوقف هجماته على الأراضي السعودية إذا أوقفت عملياتها الجوية في مأرب وتجميد أيّ مشروع عسكري له نحو الجنوب في حال حيدت القوى الجنوبية مناطقها من الصراع الدائر بين الشرعية والحوثي.

الحوثي يحشد كل قدراته السياسية والعسكرية لدفع الجنوبيين والتحالف العربي للاعتراف به كقوة أمر واقع مسيطرة على شمال اليمن مع الإيحاء بأنه مستعد في مقابل ذلك لوقف هجماته على الأراضي السعودية

ككسولة اختبار، فإذا وجد الحوثيون الطريق سالكا نحو الجنوب، كما كان الحال في العام 2015، لن يترددوا في بسط سيطرتهم على جغرافية اليمن الجيوسياسية كاملة، متجاهلين كل المحاذير الثقافية والسياسية وحتى الإقليمية والدولية، وهو ما حدث في العام 2015 عندما تجاهلوا تحذيرات السعودية واجتاحوا مدينة عدن، قبل أن تردهم المقاومة الشعبية المدعومة من التحالف العربي على أعقابهم.

وعلى افتراض أن الحوثيين ما زالوا يعون درس هزيمتهم في جنوب اليمن وهو أمر غير مؤكد، فالأرجح أن هدفهم من هذا التصعيد العسكري في هذه المرة يتمثل في خلط الأوراق وتوسيع دائرة التوتر السياسي والعسكري، بهدف التفاوض في نهاية المطاف على منحهم الحق في بسط سيطرتهم على شمال اليمن ما قبل 1990، إضافة إلى رغبتهم الواضحة في تحييد مناطق الجنوب من صراعهم مع الشرعية في آخر المناطق التي تتواجد فيها بشمال اليمن وتحديدا مأرب وما تبقى من البيضاء وأجزاء من تعز.

ووفقا لهذا التفسير، يحشد الحوثي كل قدراته السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة لدفع الجنوبيين والتحالف العربي على حدّ سواء للاعتراف به كقوة أمر واقع مسيطرة على شمال اليمن، مع الإيحاء بأنه مستعد في مقابل ذلك لوقف هجماته على الأراضي السعودية إذا أوقفت عملياتها الجوية في مأرب وتجميد أيّ مشروع عسكري له نحو الجنوب في حال حيدت القوى الجنوبية مناطقها من الصراع الدائر بين الشرعية والحوثي.

وبقدر ما تبدو تلك المعادلة مغرية، لكنها في الحقيقة، ومن واقع تجارب سابقة، مجافية لنوايا الحوثيين التوسعية والتي كشف عنها اندفاعهم الطائش نحو جنوب اليمن في 2015 بعد أن كانوا يتبنون طوال سنوات موقفا سياسيا وإعلاميا تجاه "القضية الجنوبية" يتجاوز في سقفه حتى مطالب الحراك الجنوبي المطالب بفك الارتباط، لكنهم وقعوا في أول امتحان حقيقي بعد ذلك بفترة وجيزة وسحقوا مواقفهم الكلامية التي تبنوها من الجنوب في مؤتمر الحوار الوطني الشامل ليشنوا حربا على الجنوب تفوق في همجيتها حرب صيف 1994 ذاتها، بل وحروب صعدة مجتمعة.

ومن واقع سلسلة طويلة من التجارب والتناقضات الهائلة بين ما يعلنه الحوثيون وما يفعلونه، لا يمكن باعتقادي الوثوق بتصريحات الحوثيين لا عن شروط السلام ولا أهداف الحرب وحدودها، فلسان الحوثي المعسول أشبه ما يكون بلسان مستعار لا يرتبط بحقيقة النوايا الحوثية أو عقلها الأيديولوجي أو طريقة تفكير الجماعة العقائدية والسياسية التي مارست أبشع الانتهاكات في اليمن، بعد أن ظلت لسنوات ترفع راية "المظلومية" و اجتاحت صنعاء ونفذت أعنف انقلاب وهي التي زعمت أنها جاءت لتنفيذ مخرجات مؤتمر الحوار، وجوعت اليمنيين وجرّعتهم مرارة الحرمان بعد أن ادعت أنها تطالب بمحاربة الفساد خاصة ما تعلق منها بالمشتقات النفطية، التي أنشأت لها فيما بعد أسواقا سوداء شديدة الحلكة كما هو حال اليمن اليوم.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk